

القصاص القرآني

بين الأساطير والتاريخ

عبد العزيز راجل
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

على سبيل التقديم:

من المفاهيم الأساسية التي يجب البحث فيها ومعرفتها واستيعاب الأقوال الدائرة حولها: مفهوم الأسطورة والأساطير، وتزداد أهمية هذا المصطلح، حين نجد وروده في النصوص الدينية المقدسة؛ ومن بين هذه النصوص الدينية النص القرآني. وتعد الأسطورة معطى مهما، حيث نستطيع من خلالها معرفة كيف كان الإنسان في بداياته الأولى؟ وكيف كان يفكر؟ وما هي التصورات والمعتقدات التي كان يحملها؟ ولعل من الأسباب التي جعلتنا نركز على مفهوم الأسطورة، هو تلك التصورات الملتبسة التي يحملها البعض، وسنتطرق إلى مدى صحة هذا التعريف من خطئه، انطلاقاً من النص القرآني ذاته، كما أننا نهدف إلى إبراز مفهوم للأسطورة من خلال تبيان معناها حقيقة، حيث يقتضي منا ذلك أن ندرج ما ذكرته معاجم اللغة العربية، وناقش الأسطورة في علاقاتها بالخرافة من جهة، والحكاية من جهة أخرى والتاريخ والقصص بشكل عام، وما يتميز به النص الأسطوري عن النص العادي ثم نعرّج على القصص القرآني ومدى تعبيره عن أحداث حقيقة وواقعية، أم هو تعبير عن أحداث خيالية، وسنعرض لهذا الموضوع من خلال أطروحتين متباينتين: الأولى يعبر عنها الدكتور محمد أحمد خلف الله، والثانية أطروحة الدكتور عبد الكريم الخطيب، من خلال منجزهما وإنتاجهما المعرفيين.

القصة القرآني والأسطورة:

1- تعريف الأسطورة:

قال: الزجاج في قوله تعالى: (وقالوا أساطير الأولين)¹ خبر لا ابتداء محذوف والمعنى: وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين، معناه، سطره الأولون، وواحد الأساطير، أسطورة كما قالوا أحداثه وأحاديث ... الأساطير الأباطيل، أحاديث لا نظام لها. وسطرها: ألفها واطر علينا: أتانا بالأساطير قال الليث: «يقال سطر فلان على فلان، إذا زخرف له الأقاويل ونمقها...»²

والأساطير الأحاديث لا نظام لها.³

وجاء في المعجم الوسيط، سطر الكتاب سطرًا، كتبه، يقال سطر الأكاذيب، واطر علينا قصد علينا الأساطير، والأحاديث العجيبة.⁴

فيما يتعلق بكلمة الأسطورة، وهل هي من الألفاظ الدخيلة على اللغة العربية أم هي أصيلة؛ يجب الأستاذ الباحث فراس السواح بقوله: ليست الأسطورة من الكلمات المستحدثة في اللغة العربية والمضامين التي استوعبتها هذه الكلمة في الاستخدامات الحديثة تستند إلى مضامينها القديمة.⁵ ويستأنف الحديث بقوله: وهذا الاشتقاق لكلمة أسطورة في العربية يقارب اشتقاقها في اللغات الأوروبية فكلمة myth في الإنجليزية والفرنسية وغيرها مشتقة من الأصل اليوناني muthas وتعني قصة أو حكاية، وكان أفلاطون أول من استعمل تعبير muthologia للدلالة على فن رواية القصص، وبشكل خاص ذلك النوع الذي ندعوه اليوم بالأساطير، ومنه جاء تعبير mythology المستخدم في اللغات الأوروبية الحديثة. ويلخص الباحث إلى ما يشبه التعريف: «الأسطورة هي حكاية مقدسة مؤيدة بسلطان ذاتي»⁶. ويقصد بالسلطان الذاتي للأسطورة، أسلوب صياغتها وطريقة مخاطبتها للجوانب الانفعالية وغير العقلانية في الإنسان. وتنشأ الأسطورة بحسب فراس السواح من المعتقد الديني؛ فهي تعمل على توظيفه وإغنائه وترتبط بالطقس. ويصبح الثالوث التالي: "المعتقد والطقس والأسطورة" من المقومات الأساسية المكونة للدين، والتي لا نستطيع التعرف على الظاهرة الدينية في تبديها المجتمعي بدون التعرف عليها مجتمعة ومتعاونة.

¹ - سورة الفرقان، الآية 4

² - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، تحقيق دار المعارف، المجلد 3 (من ذ إلى س) ص 2007

³ - الطاهر أحمد الرازي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطبعة 3 ج 2 1980م، ص 560 (س ط ر).

⁴ - أخرجه مجموعة من الدكاترة، المعجم الوسيط، ج1، ص 429

⁵ - السواح، فراس، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ونشأ الدافع الديني، الطبعة الرابعة عام 2002، دار علاء الدين، سوريا، ص 56

⁶ - المرجع السابق، ص 58

هذه المعايير التي تم عرضها للتمييز بين النص الأسطوري وغيره، من حيث الشكل والمحتوى تبدو مسألة منهجية مهمة غير أنه بدراسة الأسطورة في علاقاتها بالخرافة، نلاحظ أنهما لا يستويان معنى ومدلولاً، مما يدفعنا إلى التساؤل عن الدواعي التي جعلت البعض يخلط ولا يميز بينهما؟

2-1- الفرق بين الأسطورة والخرافة:

سبق أن أشرنا إلى مفهوم الأسطورة، باعتبارها حكاية مقدّسة، بيد أنّ الخرافة تعتبر حكاية شعبية بطولية مليئة بالمبالغات والخوارق أبطالها من البشر والجن ولا دور للآلهة فيها، هذا فضلاً عن الصياغة الأدبية التي تصاغ بها، وإيرادها في أبهى حلة فنية، ولكنها لا تحمل طابع القداسة، وثمة فرق آخر يتحدد في أن الأسطورة مادتها الحدث التاريخي تدور حوله قد يكون على سبيل المثال من الطبيعة، الواقع، بينما الخرافة سرد من نسيج الخيال لا علاقة لها بالواقع.

يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "نستطيع أن نقول أنّ الحكاية الخرافية لا تعتمد الحدث أساساً لها، وإنّما تعتمد البطل"¹². أمّا من حيث لغتهما، فهما يشتركان في كونهما خياليتين، وتنتقلان شفاهياً من جيل إلى جيل، ويسهل حفظهما كما تتميزان بسرعة الانتشار وكثافة الأساليب الفنية والاستعارات...

نخلص إذن، إلى أنّ معيار التمييز بين الأسطورة والخرافة هو معيار الواقعية؛ بمعنى أن الأسطورة وقائعها ليست خيالية، ولعل هذا الالتباس في مفهوم الأسطورة هو ما جعل الكثير يدرج الأساطير ضمن الخرافات، يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب: (إنّ الأساطير لا تعدو أن تكون أوهاماً وخرافات، عاشت في تصورات الإنسانية في خطواتها الأولى في الحياة...)¹³.

ومعلوم أن كلمة خرافة لا ترد في القرآن الكريم، و تعرفها معاجم اللغة بأنها: الحديث المستلح من الكذب. كما أنها تطلق على ما يكذبونه من الأحاديث، وعلى كل ما يستلح ويتعجب منه (لسان العرب مادة خرف) وكلمة خرافة مشتقة من مادة (خ ر ف) ومن معانيها فساد العقل من الكبر. أما "خرافة" غفلا من التعريف، فاسم علم، وقد ورد في سياقات عديدة منها حديث خرافة، ويقال إنه رجل من بين عذرة أو جهينة اختطفته الجن ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فكذبوه فجرى على ألسنة الناس.¹⁴

¹²- زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ط 2، 1979، دار العودة بيروت لبنان، ص 63

¹³- الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني. دار المعرفة لبنان، ص 314

¹⁴- عجيبة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط 1 1994م، طبعة جديدة منقحة 2005، دار الفارابي لبنان، دار محمد للنشر تونس،

من خلال ما سبق ذكره، يتبين أنّ الخرافة مختلفة اختلاقاً وأنها خطاب باطل لا أساس له، وكما أشرنا آنفاً فإن الخرافة تتميز عن الأسطورة بأنها ليست محل اعتقاد من أي كان لا من الذي يقصها ويرويها ولا من ينصت إليها، ويتساءل الدكتور محمد عجينة في السياق ذاته، هل هذا الحد الفاصل بين الأسطورة والخرافة حد قاطع؟ أليست بعض الخرافات أساطير كف أصحابها عن الإيمان بها، وبالتالي تكون بين الأسطورة والخرافة علاقة تشويئية إذا ما نظرنا إليهما في مجرى الزمان وفي سياق التطور التاريخي؟ والطريف أنّ في استعمالات العرب تطابقاً يكاد يكون تاماً بين أسطورة وخرافة باستثناء نوع مخصوص بعينه هو الخرافات التي على أسنة الحيوان.¹⁵ وثمة من يتجه إلى استحالة فصل الأساطير - طقوسية - كانت أو تعليلية أو رمزية عن الحكايات الخرافية، لأننا نعجز حقيقة عن أن نجد فروقاً دقيقة بينهما، وكثيراً ما تحكي أسطورة أعمالاً تسردها بتفصيلاتها الحكاية الخرافية، وفي ضوء هذا الالتحام الذي يحتمل الفصل يمكن أن نفهم لماذا لم يفرق أرسطو بين الخرافة والأسطورة.¹⁶ ولعل عدم التفريق في الثقافة العربية الإسلامية بين الأسطورة والخرافة سينتج عنه الغموض والالتباس في فهم المقصود بالأساطير في القرآن الكريم، وهذه النقطة سننوقف عندها فيما بعد.

ولكي لا نخلط بين الحكاية والخرافة من جهة، والقصص القرآني من جهة أخرى، سنفرد الحديث عن الحكاية في علاقاتها بالقصة القرآنية في مبحث خاص.

3-1- لماذا لم يطلق على القصص القرآني حكاية؟

يطلق على الحكاية القصة أحياناً، فهي سرد لأحداث لا يشترط فيه إتقان الحكاية ولكنه ينسب إلى راوٍ وتكمن في حكاية الأحداث إثارة الاهتمام ولا يشترط فيه أن تتعمق في الكشف عن خبايا النفس أو أن تبرع في رسم شخصياتها والمهم في الحكاية هو السرد المنسوب إلى راوٍ ولو أخذ من التاريخ أو الواقع مباشرة.¹⁷

فالحكاية سرد واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه. وفي معرض إيرادنا لهذا المصطلح وجدنا سؤالاً مهماً طرحه الدكتور عبد الكريم الخطيب: لماذا لم يطلق على القصص القرآني اسم الحكاية بدلاً من القصص؟ والحكاية كما نرى هي أقرب شيء إلى موضوع هذا القصص، إذا كان إعادة الماضي ومحاكاة له، لاسيما أن لفظ القصص يوحي بأن جانباً من الخيال قد اختلط به، على خلاف الحكاية التي تدل على محاكاة مماثلة للحدث. والجواب على هذا - والله أعلم - هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها، وإنما بعث لها وإعادة وجودها فكان لفظ القصص أو

¹⁵- نفس المرجع السابق، ص 24

¹⁶- زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ص 66

¹⁷- مجلة التراث العربي، (اتحاد كتاب العرب-دمشق)، العدد 46 يناير 1992م السنة 14، (إعادة فحص التراث القصصي العربي، عبد الله أبو هيب) ص

القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن إذا كان ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتتبعه ثم الوقوف عليه بذاته لا على صورته أو ما يشبه صورته.¹⁸

لكن الدكتور عبد الكريم الخطيب لم يشير إلى أسلوب القرآن ومنهجيته في إعادة الأحداث الماضية للأمم السابقة؛ فهي ولا شك جاءت في قالب فني معجز لا ينكره إلا جاحد؛ بمعنى أنها وردت وفق قواعد فنية دقيقة وهذا ليس بالضرورة داعياً إلى القول بأنها يشوبها شيء من الخيال؛ لأن هذا يستحيل في حق الله عز وجل، وإنما إيصال المعنى للعرب اقتضى هذا الطريق. وسناقش فيما بعد هذا الإشكال بتفصيل أثناء الإشارة إلى علاقة القصة القرآنية بالواقع والحقيقة..

1-4- تسميات القصة في القرآن:

- القواسم المشتركة بين المصطلحات: الحديث - النبأ - القصة.

ما كانت تسميه قريش بأساطير الأولين - سنتحدث عن هذه العبارة في الآيات القرآنية الواردة فيها، ونستجلي معانيها من خلال السياق الذي وردت فيه - هو الذي ورد في القرآن الكريم مقترنا بتسميات مختلفة.

- **الحديث**: مثل ما جاء في سورة طه الآية الكريمة (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)¹⁹ وفي الآية من سورة البروج: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)²⁰

فالأحاديث كما تعارف عليها المحدثين والفقهاء، هي كل ما روي عن رسول الله (ص) من أقوال وأفعال وتقريرات، ويمكن إدخال أقوال أحاديث الصحابة، وأحاديث الأمم الغابرة...

- **النبأ**: اقترنت كلمة نبأ مثلاً، بمعنى الخبر "عظيم الشأن" يقول الله تبارك وتعالى في سورة النبأ (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ)²¹ (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ)²² والفرق بين النبأ والخبر هو كون النبأ لا يكون إلا للإخبار ربما لا يعلمه المخبر (نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)²³

- **الخبر**: أما الخبر، فهو أعم حيث إنه القول الذي يصح وصفه بالصدق والكذب، وهذا مذهب البلاغيين في مقابلتهم إياه بالإنشاء، وهو في اصطلاحهم «الكلام الذي يدخله الصدق والكذب» أو " كل كلام له خارج

¹⁸ - الخطيب عبد الكريم، القصص القرآني، ص 49

¹⁹ - طه، الآية 9

²⁰ - سورة البروج، الآية 17-18

²¹ - سورة النبأ، الآيتان 01-02

²² - سورة الكهف، الآية 13

²³ - سورة القصص، الآية 2

صدق أو كذب نحو قام زيد، وكلمة خبر تدل على الأخبار؛ أي الإعلام عن حدث أو شخص أو واقعة تاريخية، واتسع مجالها الدلالي، فشملت أخبار الماضين من القدامى، وأيام العرب وأنسابهم وجميع ما من شأنه أن يكون سردا، ويبدو من خلال هذه المصطلحات أن ثمة وشائج ومشاركات بين التسميات يحيل إلى المعنى التالي: هو الكلام المخبر بشؤون الماضيين وسيرهم وأخبارهم في زمن ولى وانقضى، وقد اكتسب بعض هذه المصطلحات إما بالتوسع أو بالاختصاص معاني خاصة بها، وهذه المعاني تلتقي بمعنى القصة أو القصص في القرآن الكريم، وفي ما يلي سنعرض معنى القصة لغة واصطلاحا لتكتمل الصورة حول هذه المرادفات من غير جذرها اللغوي.

2- تعريف القصة القرآنية:

القصص جمع قصة، وهي مشتقة من قصّ ومعناها لغة قطع وتتبع الأثر وأتبع الشيء وروى القصة؛ أي "الأمر والحديث". والقصة هي أيضا "الخبر الطويل". وهذه التعاريف تربط بين الخبر والحديث والقصة على أساس كمي هو طول القصة، أما تفسير الآية: (نحن نقص عليك أحسن القصص)، فهو في المعاجم: «نبين لك أحسن بيان» وهو فهم ديني خاصّ توظف فيه قصص الأولين لبيان المقصود من سرد أخبارهم في القرآن، وهو إذا ما نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر القصاص، فالهدف هو الوعظ. أما إذا نظرنا إليها من وجهة نظر الجمهور المستمع أو القارئ، فهو الاعتبار:

لم ترد كلمة "قصة" منفردة في القرآن الكريم، ولكن مصدرها "القصص" وردت مرات، وفعله متصرفا ورد اثنتين وعشرين مرة، كما وردت سورة في القرآن تحمل اسم القصص، وفي ما يلي نورد بعض الألفاظ التي وردت في القرآن:

اللفظة	السورة	رقم السورة والآية
قص	القصص	28:25
قصصنا	النحل	16:108
نقصص	يوسف	12:5
نقص	الأعراف	7:101
نقصه	هود	11:100
يقص	النحل	27:76
يقصون	الأنعام	6:130
أقصص	الأعراف	7:176

وهذا يدلّ على تجذّر هذه الكلمة في البيئة العربية، وأنها كانت متداولة ومعروفة في التراث العربي، فضلا عن أهميتها ودورها الاجتماعي والثقافي والديني، وجاء القرآن ليزيد ويعمّق أهميتها في نفوس العرب، وذلك حين قصّ عليهم قصص الأمم الخالية، والجديد الذي أتى به القرآن هو أن هذه القصص لم يعد قصصا مقتصرًا على محترفين أو أشخاص معروفين بهذا الفن، بل أصبح الرسل والأنبياء هم المكلفون ومن مهامهم نقلها للناس في قالب مغاير في العرض والمحتوى، وكذلك مألّ وغائبة هذا القصص: يقول الله سبحانه وتعالى في الآيات التالية: (إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي)،²⁴ (فَأَقْصِبْ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).²⁵

- القصة القرآنية من حيث الاصطلاح:

يقول الفخر الرازي في معرض تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)²⁶

(القصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة)²⁷

وهذا التعريف قد تبناه الدكتور محمد أحمد خلف الله بعد عرضه لتعاريف لغوية والتي لا تف بالغاية المطلوبة، ولذلك يعتبر تعريف الرازي أقرب إلى الميدان الأدبي؛ لأن شرحه كان شرحا دينيا للقصص، ولأن القصة الدينية ليست إلا لونا من ألوان القصص الأدبية.

ونجد تعريفا اصطلاحيا للأستاذ عبد الستار حبر الأسدي، يحاول أن يبرز الطابع الخاص للقصة القرآنية مقارنة بالقصة الفنية، يقول: القصة القرآنية هي مجموعة من الأحداث والشخصيات الواقعية التي تروي لنسق معين، وتندرج ضمن خطاب أعم متضمن في سياق السورة التي تنتمي لها ضمن بنية النص الكلية.²⁸ هذا التعريف الأخير يعكس هاجسا لدى الكثير من الباحثين مفاده هو إبعاد أية خاصية للخيال والتأكيد على عكسها للواقع والنقل الأمين للأحداث، وهذا مخالف تماما لرؤية الدكتور خلف الله في أطروحته الفن القصص في القرآن الكريم، الذي يشدد على أن المقصود من القصة، هو ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو بطل له وجود ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت للبطل لكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي فقدم بعضها وآخر وآخر وذكر بعضها وحذف آخر وأضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ في التصوير إلى الحد الذي يخرج بالشخصية عن أن تكون من

²⁴ - سورة الأعراف، الآية 35

²⁵ - سورة الأعراف، الآية 176

²⁶ - سورة آل عمران، الآية 62

²⁷ - الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج 2، ص 703

²⁸ - مجلة المشكاة، العدد 32-2000، المجلد 8، حبر الأسد عبد الستار، القصة القرآنية مصطلحا، ص 51

الحقائق العادية المألوفة وتجعلها من الأشخاص الخياليين. ذلك هو الذي نقصده عندما نذكر لفظة قصة في الميدان الأدبي، وهو الذي نقصد إليه من درسنا للقصص الفني في القرآن.

ويبدو- بنظرنا- أن القصة حكي مسترسل وأثر متداول يتضمن أسئلة وقضايا إنسانية صيغت في قالب فني، -وبطريقة إقناعية إبلاغية- وعرض للأحداث بشكل موجز ومجمل، تروم الهداية والتسليم بما جاء به الرسول، النبي الكريم. ويبدو أن محمد أحمد خلف الله صاحب رسالة في الفن القصصي؛ أسقط المفهوم المعاصر للقصة الفنية على القصة القرآنية دون مراعاة خصوصية النص القرآني، وهذا يدفعنا إلى طرح إشكالية تجنيس القصة القرآنية.

1-2- إشكالية تجنيس القصة القرآنية:

الحديث عن التجنيس يصدق على النص القرآني ذاته، هذا الأخير الذي يصعب أن نعتبره جنسا أدبيا؛ فالقرآن الكريم نص يرفض التجنيس؛ لأنه يمتلك هوية خاصة به فالمتن القرآني تضمن أشكالاً أدبية وغير أدبية، ولذلك لا يمكن تجنيسه وفق شكل أدبي محدد، ومن تم فالقصة القرآنية يصعب أن نضعها في بوتقة القصة الفنية، أو التاريخية، أو الأسطورية، أو الخيالية، أو الواقعية، أو الاجتماعية...

القصة القرآنية ليست فنا محضا، وإن كانت تحتوي على ذلك، فلها طابع خاص محدد سلفا انطلاقا من مصدرها الإلهي، الذي لا يمكن أن يتطابق مع النص البشري.

لقد قام الدكتور خلف الله تكريسا لطرحة المتعلق بفنية القصة القرآنية، فذكر أن القرآن يحتوي على ألوان من الأفاصيص منها اللون التاريخي أو القصة التاريخية التي تدور حول الشخصيات التاريخية من أمثال الأنبياء والمرسلين، التي يعتبرها ليست عرضا تاريخيا تطلب فيه المطابقة الواقعية المحققة للصدق العقلي، وإنما هي عرض أدبي يطلب فيه التأثير.²⁹

نستشف من كلام الدكتور خلف الله نفي أن يكون المقصود من القصة القرآنية الحقيقة والتاريخ، وهناك من الباحثين والعلماء من يتفق مع الدكتور حول أنّ النصّ القرآني ليس الهدف منه التاريخ والتأريخ ولا سيما القصص القرآني، والقرآن لم يعنى بسرد التفاصيل التاريخية وهذا ليس قصده، ولكنّ هذا لا يعنى أن القرآن لا يعتبر مصدرا من المصادر التاريخية، أو يتضمن بعض الأمور التاريخية، ثم ذكر لونا آخر من ألوان القصص في القرآن هو القصة التمثيلية أو قصة ضرب المثال، والذي يقول فيه أن الأحداث فيها ليست إلا الأحداث التي يقصد منها إلى البيان والإيضاح أو إلى الشرح والتفسير، والذي لا يلزم فيه أن تكون أحداثه من

²⁹- المرجع السابق، ص 163

أمّا القصص التاريخي، فيعتمد الكاتب فيه عن أحداث التاريخ الماضية، الكاتب يستلهم التاريخ الإبداعي الفني، ويتّخذ من الأحداث "أو الحقائق" التاريخية المجرّدة منطلق له في نسج قصة أو قصص تاريخي، ونشير هنا إلى ضرورة التفريق بين المؤرخ والمؤلف والفنان كاتب القصة؛ فالمؤرخ ينشد الحقيقة ويتوسل بمنهج التاريخ ويعتمد على مصادره، ويحاول إعادة تصوير الماضي ثم يحاول تفسير الماضي من خلال الكشف عن علاقة السببية بين الظواهر التاريخية. أما مبدع القصة التاريخية يتخذ من أحداث التاريخ مادته وله حريته في توظيف ما يناسبه من أحداث ووقائع وقد يزيد ويبالغ وينقص منها على حساب الحقيقة التاريخية في سبيل إبداعه الفني، ونضيف إلى هذه التفرقة فرقا آخر جوهريا، يلاحظ في القصص التاريخي أو الخيالي غلبة الشخصية على الحدث (...)، حيث يكون الشخص هو محور الحركة في القصة وهو متعلق بالأحداث الجارية.

لا تجد في القصص القرآني موقفا من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها، أو الحادثة وحدها (...). وإنما تلتقي الشخصية بالحادثة، أو الحادثة مع الشخصية، فيتخلق من اجتماعهما مضمون، هو الذي يصبح بطل الموقف (...). فالأشخاص في القصص القرآني-أيا كانوا- ليسوا مقصودين لذاتهم (...). وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة أو الشريرة.⁴⁰

وكذلك الشأن في الأحداث التي يعرضها القرآن في قصصه... إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال...

ونطرح السؤال التالي: هل القصص القرآني كان همه تتبع الأحداث التاريخية؟

للإجابة عن هذا السؤال؛ يحسن بنا تبيان الهدف والغاية من سوق القصة القرآنية، فهو بالأساس وعظي وللهداية والعبرة، ويفضي بنا كذلك إلى معرفة طبيعة القرآن الكريم ككتاب سماوي ووحى إلهي.

يكاد يجمع الدارسون أن القرآن ليس كتاب تاريخ، وإن كان البعض يقول إن ما ورد فيه حوادث تاريخية لا شك فيها، والقرآن أعرض عن وقائع تاريخية لا تقدم فائدة للقصة في القرآن لم تعرض لتتبع الأحداث التاريخية فهذا ليس من أهدافها، ولم تعن بذكر الوقائع والأحداث بين الأفراد والجماعات والأمم، فتحديد الأماكن والأزمنة لم تخض فيه القصة القرآنية. ونظير هذا الكلام تكرر في كتابات عديدة وصيغ مختلفة وثمة من يعتبر أن القصص القرآني عرض أحداث تاريخية مضى بها الزمن، فهو وثيقة تاريخية من أوثق ما بين

⁴⁰- الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 40-41، بتصرف.

يدي التاريخ من وثائق فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة.

41

ويؤكد هذا القول أحد الباحثين بقوله: إنَّ القرآن الكريم مصدر تاريخي لا ريب أنه أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق؛ فهو موثوق السند⁴² ويشير إلى أن التاريخ المقصود عنده التاريخ الذي جاء فيه القرآن الكريم فحسب، بمعنى آخر، القصص القرآني، حينما يتعرض للأمور التاريخية لا يذكرها مسلسلة ولا يسردها حسب السرد التاريخي؛ لأن التاريخ في القصص القرآني لا يعني بذاته، ولكن حيث توجد العبرة والعظة.

وإذا تأملنا هذه الأقوال، نجدها تلتقي في نقطة مركزية ألا وهي أن القصص القرآني يراد منه هداية الناس، ويمكن اعتبار قصص القرآن الكريم ظاهرها الإخبار وباطنها الاعتبار.

ومن خلال ما سبق ذكره، نستشف أن ثمة ثلاثة اتجاهات في هذه المسألة:

الاتجاه الأول: يرى في القصص القرآني غايته فقط دون أحداثه، معتبرا أن تلك أحداث ليست سوى رموز تشد الخيال وتشد النفوس من أجل عبرتها.

الاتجاه الثاني: يرى القصص القرآني تاريخا للبشر منذ آدم، وليس مجرد أساطير أو رموز تحكى للعبرة.

الاتجاه الثالث: يتساءل لما لا يكون القصص القرآني - عامة - قد نزل تأكيدا لتاريخ، وتدعيما لقناعات واعتقادات شائعة في ذلك العصر، ولا يتعارض أبدا مع فهم الناس وتصوراتهم حينئذ.⁴³

خلاصة الكلام:

يتداخل مفهوم القصة القرآنية مع مفاهيم أخرى من قبيل الاسطورة والخرافة والحكاية، ولاحظنا أن كل مفهوم يتميز عن الآخر بسمات معينة؛ من حيث الشكل أو المضمون أو الغاية.

يتضح أن الأساطير/الأسطورة لفظة ليست "مستهجنة"، لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تمر الانسانية منها، كمرحلة من مراحل تطورها الفكري، وذلك تمهيدا لاستقبال الوحي والكتب الدينية.

⁴¹ - المرجع السابق، ص 39

⁴² - مهران، محمد بيومي، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جزء 1، في بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، مصر 1995، ص38

⁴³ - عبد الرحمن، عبد الهادي، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، ط1، المركز الثقافي العربي، البيضاء 1993م، ص44

قائمة المراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، تحقيق دار المعارف، المجلد 3 (من ذ إلى س) ص 2007
2. مهران، محمد بيومي، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جزء 1، في بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، مصر 1995
3. عبد الرحمن، عبد الهادي، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، ط1، المركز الثقافي العربي، البيضاء 1993م.
4. الطاهر، أحمد الرازي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطبعة 3 ج 2 1980م، ص 560 (س ط ر).
5. حبر الأسد، عبد الستار، القصة القرآنية مصطلحا، مجلة المشكاة، العدد 32-2000، المجلد 8
6. الجابري، محمد عابد، مواقف: إضاءات وشهادات، سلسلة كتب صغيرة شهرية "من ملفات الذاكرة" الكتاب 47، الطبعة 1، يناير 2006، دار النشر المغربية (أديما).
7. مجموعة من الدكتوراة، المعجم الوسيط، ج1، ص 429
8. السواح، فراس، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ونشأ الدافع الديني، الطبعة الرابعة عام 2002، دار علاء الدين سوريا .
9. خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن، دار الانتشار العربي، لبنان
10. الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم، يوسف، دار المعرفة، لبنان.
11. قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، مصر.
12. جمعية التجديد الثقافية والاجتماعية (مملكة البحرين) "الأسطورة توثيق حضاري"، قسم الدراسات والبحوث، ط 1، 2005.
13. زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ط 2، 1979، دار العودة بيروت لبنان. 8- عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط 1 1994م، طبعة جديدة منقحة 2005، دار الفارابي لبنان، دار محمد للنشر تونس.
14. أبو الهيب، عبد الله، إعادة فحص التراث القصصي العربي، مجلة التراث العربي، (اتحاد كتاب العرب-دمشق)، العدد 46 يناير 1992م السنة 14

هوامش المراجع العربية:

- 1- سورة الفرقان الآية 4
- 2- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، تحقيق دار المعارف، المجلد 3 (من ذ إلى س) ص 2007
- 3- الطاهر أحمد الرازي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الطبعة 3 ج 2 1980م، ص 560 (س طر).
- 4- أخرجه مجموعة من الدكاترة، المعجم الوسيط، ج1، ص 429
- 5- السواح، فراس، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ونشأ الدافع الديني، الطبعة الرابعة عام 2002، دار علاء الدين سوريا ص 56
- 6- الخطيب عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم، يوسف، دار المعرفة، لبنان، ص 314
- 7- جمعية التجديد الثقافية والاجتماعية (مملكة البحرين) "الأسطورة توثيق حضاري"، قسم الدراسات والبحوث، ط 1، 2005
- 8- مرسيا إلياذ نقلا عن مؤلف فراس السواح ، دين الانسان، مرجع سابق.
- 9- نفسه ص 27
- 10- زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ط 2، 1979، دار العودة بيروت لبنان، ص 63.
- 11- الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني. دار المعرفة لبنان، ص 314.
- 12- عجيبة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط 1 1994م، طبعة جديدة منقحة 2005، دار الفارابي لبنان، دار محمد للنشر تونس، ص 22.
- 13- نفس المرجع السابق، ص 24 زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ص 66.
- 14- مجلة التراث العربي، (اتحاد كتاب العرب-دمشق)، العدد 46 يناير 1992م السنة 14، (إعادة فحص التراث القصصي العربي، عبد الله أبو هيب) ص 122.
- 15- الخطيب عبد الكريم: القصص القرآني، ص 49
- 16- الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج 2، ص 703
- 17- مجلة المشكاة، العدد 32-2000، المجلد 8، حبر الأسد عبد الستار، القصة القرآنية مصطلحا، ص 17- المرجع السابق، ص 163
- 18- المرجع السابق، ص 152-153
- 19- الجابري، محمد عابد، مواقف: إضاءات وشهادات، سلسلة كتب صغيرة شهرية "من ملفات الذاكرة" الكتاب 47، الطبعة 1، يناير 2006، دار النشر المغربية (أديما)، ص 26-27.
- 20- خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن، ص 62.
- 21- سورة الأعراف الآية 6.
- 22- مجلة المشكاة المغربية عدد 32 سنة 2000 ، مجلد 8، جبر الأسدي، عبد الستار، القصة القرآنية مصطلحا، ص 48.
- 23- سيد، قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ص 143.
- 24- سورة الأعراف، الآية 176
- 25- الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 40-41، بتصرف.
- 26- المرجع السابق، ص 39.
- 27- مهران، محمد بيومي، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جزء 1، في بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، مصر 1995، ص 38
- 28- عبد الرحمن، عبد الهادي، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، ط 1 ، المركز الثقافي العربي، البيضاء 1993م، ص 44



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com